أبو خليل القباني

باعث نهضتنا الفنية

للاستاذ حسني كنعان

— ٢ —

شاع في الفيحاء ما بين سمار الأندية ورواد المجالس ، أن الفتى الشاغوري نابغة بني أقبيق قد أقصاه شيوخه عن دروس المسجد الأموي ، وطرده والده من داره لنزعته الموسيقية والتمثيلية لئلا تكون هذه الأسرة المرموقة المنظور إليها في حي الشاغور المحافظ على تقاليده وعاداته غرضاً للنقد والغميزة المعضة .

وانتشر ذلك كسرعة البرق بين رواد الحلقات ، فأسف على حرمانه من الدرس أناس وفرح آخرون ، أسف الذين كانوا يرقبون له مستقبلا لامعاً من إنصرافه إلى العلم ، وفرح الذين كانوا يتفسون عليه نبوغه ، ويمدون وجوده بينهم حائلا دون ظهورهم ، وكان من أشد الناس أسفاً على حاله ، خاله أبو أسعد الشواني . فأدناه من مجالسه ، وكفل معيشته ، وجعله وكيلا عنه في قاعة النشا ، ولما ارتاش وانتعشت حالته المادية عند خاله بدا له أن يستقل في عمله ، فاشترى من وفره « قبانا » واستأجر محلا في سوق البذورية وهو من أشهر أسواق دمشق التجارية ، وجعل يتكسب من هذه الصناعة ، وأمسى يكنى بالقباني ، فتغلبت هذه الكنية ، فيما بعد على أسرته وغدا يطلق عليها أسرة القباني ، وكان خاله يعتقد أن إزالة صخرة كبيرة من مكانها أهون عليه من إزالة هذه التحيزة المتأصلة في نفس هذا الفتى النابغ العجيب . ومما جعله يعطف عليه هذا العطف كله أن أبصره أكثر من مرة يجمع حوله في مقام الحسين في القسم الخارجي من الأموي جماعة المؤذنين والمذكرين ، وأبطال المراسلات في آذان الفجر وفي الأسحار في ليالي رمضان ، فيعلمهم الأذان والمراسلات من نغمة الصبا ، والحجاز ، والجهاركاه ، والسيكا ، وكانوا لا يعرفون سوى نغمتي الراست والبياتي ، وكان ذلك وهو في الثانية عشرة من سني حياته ، وكان صوته على مأذنة عيسى القائمة في جانب من جوانب المسجد الأموي يفتن السامعين وقت السحر وهو في هذه السن ويجعلهم في حيرة من أمره وذهول . وإلى هذه المواهب التي لا ينضب معينها ، نراه منصرفاً إلى العلم والتجارة والكسب ، حيث لا تمر عليه ساعة من نهار دون أن يفيد منها .

وكثيراً ما كان يرى في أوقات الفراغ ممسكا بيده مطرقة من حديد يطرق بها جانب قبانه طرقات موقعة على الأوزان الموسيقية ينشد الموشحات والأهازيج على حسب الإيقاع إنشاداً يفتن به الألباب ويخلب عقول أهل السوق ، فيتكونون حوله يرقصون كأنهم سكارى لعبث . إبنة الخان بعقولهم ، فيصفقون ويستديرون على أنفسهم بدون شعور من شدة النشوة والطرب ، مما جعل هذه المواهب القلوب على محبته وجلبت إليه الرزق فذاع إسمه في المدينة وتحدث عنه الخاص من أبنائها والعام .

وكانت تقام له حفلات السمر لدى صحبه وعاشقي فنه في كبريات الدور ، يمتد فيها وصحبه المحاورات والروايات الساذجة

ومن الحيوانات . الأسد والذب ... الخ . ولكل من هؤلاء جميعاً دور يؤديه وحديث يلقيه. يتقدم فيحدث ويحدث ويحاور ثم يتوارى ويترك الميدان لغيره ، وهكذا دواليك . ويتخلل الحوار المنثور أبيات وأغاني وأناشيد عدة . والقطعة المطبوعة من طيف الخيال تتألف من جملة فصول أو مناظر ، لكل منها حديث وحوار . واعتقادنا أن ما أورده ابن دنيال في طيف خياله هذا ، ما هو إلا نمط من أنماط عدة كثيرة ، ورواية من روايات مختلفة كانت تمثل بين الناس في تلك العصور الخالية للهو والتسلية والعظة والاعتبار؛ فالكتاب على ما فيه من مجون وفكاهة فيه أيضاً مثل وحكمة . وعلى أية حالة فهو يومي إلى أن التمثيل المسرحي والرواية التمثيلية والشعر التمثيلي كانت كلها تدور في مخيلات القوم في ذاك الزمن السحيق ، ولو إلى حد ما .

ولا يتسع حديث واحد كحديثنا اليوم لاستيعاب القول عن مظاهر القصة في العصر المملوكي . فكل مظهر منها يحتاج إلى دراسة ، فلعلنا — أو لعل غيرنا — يعود إليها في فرصة أخرى .

محمود رزق سليم
مدرس بكلية اللغة العربية

المؤلفة من أربعة أشخاص أو خمسة ، تعرض فيها فصولا بالمفاضلة ما بين الكسلان والمجتهد ، والتاجر والعامل ، والعالم والجاهل ، ولما طال الأمد عليه وهو يدب في هذه الصناعة دبيب الطفل الزاحف الذي يحبو على يديه ورجليه ويتحفز للوثوب خطر بباله أن يأخذ دور عنترة ويجعل دور عبلة لصديق من أصدقائه مقلداً في ذلك أستاذه الأول على حبيب الذي كان يتخذ من الصور الخيالية أشخاصاً فيكلمهم خلف الشاشة ويحاورهم ويداورهم كما مر معنا في البحث الماضي ، فنجح في هذا الباب نجاحاً كتب له فيه الظفر ، وفاق فيه أستاذه . إذ أن ذاك كان يحاور صوراً خيالية ، وهذا يحاور ويمثل مع أشخاص حقيقيين .

وفي عهد ولاية المرحوم الوالي « صبحي باشا » حضرت إلى دمشق من فرنسا فرقة تمثيلية ومثلت في مدرسة « العزارية » روايات إجتماعية وأخلاقية في باب توما ، وهي أقدم مدرسة لدينا كانت تقوم ولا تزال قائمة حتى الآن بتعليم اللغة الفرنسية ، وكان القباني قد شهد هذه الروايات جميعها وأخذ فكرة عن المسرح والتمثيل والممثلين وتوزيع الأدوار « والمكياج » ، فتمم بذلك ما كان ينقصه من فكرة التمثيل والمسرح ، وأمسى أكبر همه أن يؤسس في دمشق مسرحاً ، ويؤلف فرقة ، بيد أن الذي عاقه عن المضي في سبيله ، قضية ظهور الفتيات على المسرح ، وما يعتور هذه الفكرة من طرق شائكة وصعاب وعقبات .

فالمرأة التي كانت حبيسة بيتها ، وكان لا يسمح لها في الخروج منه سوى مرة واحدة في العمر تلك هي المرة التي تخرج فيها من البيت مزفوفة إلى بيت بعلها ، ومرة واحدة بعد الموت ، تلك هي المرة التي تخرج فيها محمولة على الأعناق إلى مقرها الأخير — فكيف تستطيع أن تظهر على المسرح وحالها حالها ، وتحبسها عبسها ، إن دون ذلك خرط القتاد وإراقة الدماء وإسالة النفوس .

بقي القباني يفكر في تذليل هذه العقبة وتسهيلها مدة من الزمن حتى بدا له أن يمضي في طريقه غير وجل ولا هياب ، ويستعيض بدلا عن النسوة الفتيان « المرانق » ذوي الشارات الحسنة والمباسم المغرية . ولما شرع في عمله ، ورأى الإقبال عليه والتشجيع والتنشيط من كل صوب وناحية وأصبح العارضون أنفسهم عليه من الفنانين أصحاب المواهب ومن الفتيان ما يفيض عن الحد المطلوب طار من إهابه فرحاً ، لا سيما وأكثرهم عرض نفسه عليه بدون أجرة تشوقاً ولذاذة ، فألف على الفور فرقة تمثيلية كانت تمثل الروايات في بدء عهدها ، في البيوت والقاعات الخاصة ، فذاع خبر هذه الروايات في الشام حتى بلغت مسامع « الوالي » التركي « صبحي باشا » ، وكان ممن يقدرون الفن والمواهب ، فحضر بنفسه تمثيل رواية من الروايات في حفلة أقيمت على شرفه بصورة خاصة في بيت ثري من أثرياء الشام وهم كثر في ذلك العهد ، فدهش مما سمع ورأى ، وهام بحب أحمد كل الهيام وأدناه من مجالسه ، وجعله موضع عنايته ، فصار شفيعاً ووسيطاً ما بين الحاكم والرعية ، ما من أحد عرضت له مهمة لدى الوالي وقصد أحمد بها إلا قضاها له .

رأى الباشا في هذا النابغ الدمشقي الشروط المتوفرة للقضاء على الجمود الفكري في الشام وتهذيب النفوس الجامحة بواسطة التمثيل والموسيقى ، فأوعز إليه أن يؤلف جوقة ويقيم مسرحاً في المكان الذي يختاره .

ولقد رمى الوالي بهذه الفعلة إلى غاية سياسية الجلة تلك أهمية صرف الشعب المتوثب عن الحياة الطليقة التي كان أوجد نواتها في البلاد قادة الثورة الفكرية الشيخين المصلحين الإمامين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده .

فتم له بذلك ما أراد ، وكان إقبال الشعب على مشاهدة روايات القباني يفوق حد الوصف ويشب عن الطوق ، فأقام مسرحه في خان من خانات البذورية ، وأول رواية عرضها على الجماهير الحاشدة رواية ناكر الجميل ، فأحرزت شهرة فائقة ونالت نجاحا عظيما في الأوساط ، ثم اتبعها برواية وضاح فلم يكن إفتتان الناس بهذه الرواية أقل من افتتانهم بسابقتها ، وهكذا دواليك أخذ هذا النابغة الموهوب يتدرج بفنه من حسن إلى أحسن ومن جيد إلى أجود ، حتى طارت شهرته في جميع الأنحاء السورية ، وتخطتها إلى الأقطار المجاورة ، فصار حديث القباني الممثل المطرب والمنشد البارع واللحن الأوحد مالىء دنيا الشام وشاغل أهلها .

ولما أقبلت عليه الدنيا إقبال الأتى المنهمر ، وبسم له الدهر وصلحت حاله ، أخذ محلا فى « خان الكرك » فى المصرونية بالقرب من المدرسة العادلية ، وأقام مسرحه هناك فى منتصف المدينة . وهنا استفاض الحديث فى المنازل والمجالس عن عظيم مواهبه وسحر فنه ، وكثر رواد مسرحه ، وعشاق موسيقاه ، وتمثيل رواياته ، فلا حديث فى المدينة إلا حديثه ، ولا ذكر إلا ذكره …

وكان كلما تدفقت عليه الأموال ينفقها فى سبيل تحسين مسرحه وجلب الحاجات الفنية الناقصة إليه ، ففتن الناس وخلب عقولهم حتى بلغ من شأن الإهتمام برواياته أن صار الفقير منهم الذى لا يملك ثمن بطاقة الدخول يبيع فراشه وأوانى بيته وحلى زوجته ليشاهدها ويجتلى طلعته فيها ، وكان لشدة الإزدحام يؤم الواحد منهم القاعة من الصباح ويبقى فيها حتى المساء ليشاهد الرواية ، فإذا ما انقضت اللذة بمشاهدة رواية تولدت شهوة ولذة بمشاهدة غيرها . ومن شدة الإزدحام على أبواب القاعة المقام فيها المسرح أسس الدخول إليها لا يكون إلا تحت إشراف السلطات المحلية ، وصارت تباع التذاكر لدى مكاتب المتعهدين قبل ثلاثة أيام ، ومن يتأخر عن حجز مكان له فى أسبوع قبل ثلاثة أيام أو أربعة أيام يضطر مكرها للحظوة بمشاهدة هذه الروايات فى الأسبوع الذى يليه .

وكان للوالى فى قاعة المسرح مقصورة يقصدها كل ليلة ويمتع سمعه وبصره بهذا الفن الأخاذ بالرغم من جهله اللغة العربية التى يمثل فيها القبانى رواياته .

ومن عادة الدهر ألا يبقى على حالة واحدة ، وأنه إذا ضحك لإنسان يوماً ما سيتجهم له إذا دالت دولته وولى زمانه وشالت نعامته ، وخانه صحبه وأوطانه ، وقديماً قال الشاعر : « من سره زمن ساءته أزمان … »

(البحث صلة) حسنى كنعان

الضمير العـــالمى

للأستاذ عبد الرحيم عثمان صارو

طالت على الأيام رقدته … وخلا من الوجدان والمهج
فمتى ترى تنفـــتح مقلته … وتقرّ عين العالم اللهج ؟

غلت من الإغفاء عيناه … أم ذاب تحت جفونه البصر ؟
ياليت شعرى أين مثواه … بين الجوانح أيها البشر ؟ !

تصحو المظالم إن جرى الوسن … فى مقلتيه ويمحى العـــدل
وإذا تنبـــه نامت الفتن … بين الورى واستأمن الكل

فيم « الجامع » أيها الناس : … قـول يسر ومنطق عجب ؟
و « مواثق » يتعجب الناس … من حسنها والدر والذهب

فيم « الجـامع » راح ينهزم … حق بهـــا ويعز بهتان
لو صحت النيـــات والذمم … لم يشق تحت الشمس إنسان

لو لم تك الأهواء رائدكم … يا من ملكتم قبضة الكون
ما احتاج حق أن يناشدكم … — عبثاً — له قبساً من العون

لو لم تك الأهواء غالبة … ومطامع تعدو وتستبق
لم تخذلوا للعرب واضحـــة … غراء مثـــل الشمس تأتلق

تـــاه السلام وحار بينكم … ويـــكاد يقضى نحبه طفلا
تتمشدقون به وفعلكم … يردى السلام ويورث القتلا

أوقدتموها بيننا شـــعلا … حتى قهرتم طاغياً حرنـــا
ومن العجائب : كل ما فعلا … معكم فعلتم شبهه معنـــا

سيظل بين جوانب الأرض … تمس الوجوه وضيمة الأمل
ما تمت على جوانح البعض … أسطورة الذئب والحمـــل

عبد الرحيم عثمان صارو